العرب
الخميس 2020/04/09
السنة 42 العدد 11672

العالم يحتاج اتحاد العلم والدين في زمن كورونا

الكارثة لا تحتمل مزيدا من المعارك التقليدية بين رجال الدين والعلماء

لمن ستكون الغلبة في قلب الحرب التي تخوضها الإنسانية ضد وباء كوفيد- 19؟ هل ستكون الكلمة الفصل للعلم؟ أم أن الدين وحده هو الملاذ الأهم لاتقاء شر الوباء؟ أسئلة يتقاطع فيها العلمي بالروحاني لكنها تنقسم إلى عدة طروحات فيها المنحاز لطرف على حساب طرف، وفيها من يعتقد بوجوب التكامل بين الدين والعلم في مرحلة تقتضي استحضار كل ما ينفع البشرية لتواصل الحياة.

أجواء روحانية لمقاومة العزلة

تونس - لم تقتصر تبعات تفشي فايروس كورونا على تلك المحاولات المتكررة لفهم الوباء علميا وطبيا أو تداعياته على كل القطاعات وعلى رأسها بداية انهيار الاقتصاد العالمي، بل إن كوفيد- 19 أحيا أيضا معارك فكرية جديدة قديمة زادت في تعميق حيرة البشر وعلى رأسها الصراع بين العلم والدين.

إلى حدود اليوم ومنذ بداية ظهور الوباء في ووهان الصينية في أواخر 2019، لم يستطع لا العلم تقديم إجابات قطعية عن سبل النجاة من الوباء، ولا الدين حماية الناس من الكارثة الصحية التي يبدو أن كلفتها ستكون باهظة الثمن على عكس ما توقعت الحكومات والعلماء في بادئ الأمر.

جيمس دورسي

العلم له اليد العليا في وقف مسار فايروس كوفيد- 19

وطرح كوفيد- 19 مجدّدا حزمة من الأسئلة عن أطواق النجاة التي بإمكانها تخليص العالم من كارثة غير مسبوقة على الأقل في القرن في الأخير. وفيما يتمسّك المتدينون بمختلف اعتقاداتهم وديناتهم بضرورة التقرب إلى الله تقربا أكثر كي يصلح أمر البشرية، يذهب العلماء والخبراء إلى القول إن الوباء هو فرصة تمكن فيها العلم من إخراج الدين خارج دوائر الآليات القادرة على السيطرة على الجائحة.

وبالتزامن مع تجند الهيئات العلمية والطواقم الطبية لتقديم بحوث ونصائح علمية بحتة للتوقي من الوباء، ارتفعت أيضا أصوات دينية مؤكدة على أن انتشار الفايروس ما هو إلا "رسائل سماوية للبشرية تقتضي التقرب أكثر من الله". كل هذا الجدل طرح أسئلة عدة عن أي الأدوار سيلعبها كل مجال، فهل أن المرحلة تقتضي صراعا بين الدين والعلم أم أنها تقتضي التكامل لتجنب حصول كارثة أكبر تشمل كافة البشر بمختلف دياناتهم؟

ويقول الباحث الأميركي المتخصص في السياسات الدولية جيمس دروسي، إن العلم تمكن من إخراج الدين وأساليب الشفاء التقليدية خارج حلبة المعركة المحتدمة بين المناهج المتنافسة في دعم رأيه والسيطرة على جائحة كورونا.

ويستدل الباحث على تواصل الجدل بين العلم والدين بتمسك بعض الأنظمة بالدين كضرورة للخروج من الأزمة حيث انضم رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي، والمرشد الأعلى في إيران آية الله علي خامنئي، ورئيس الوزراء الباكستاني عمران خان، ووزير الصحة الإسرائيلي يعقوب ليتسمان إلى الكثير من دول العالم في فرض مستويات من حظر التجوال، والإبعاد الاجتماعي، والبحث عن طرق العلاج والحماية الطبية بعد أن قام الأمر في البداية على الذرائع السياسية، والدعوة للبحث عن طرق العلاج التقليدية، والالتزام بالمبادئ الدينية.

على عكس هذه الأنظمة، اتجهت السعودية بكل ما تحمله من رمزية دينية إلى نهج مسلك العلم، حيث لم يمنع الدين قادتها من إيقاف العمرة مبدئيا وربما الحج في مرحلة ثانية، وذلك رغم أهمية هذه الشعائر لدى المسلمين، وأيضا للمملكة. وفي مقارنة بين الموقفين، تساءل بروير هودبوي، العالم النووي الباكستاني، والمحلل السياسي والناشط في مجال حقوق الإنسان "ماذا لو كان حج هذا العام تحت قيادة عمران خان وليس ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان؟ هل كان سيفشل في اتخاذ مثل هذه القرارات كما فعل في باكستان؟".

وقال هودبوي ساخرا "كان على باكستان أن تستورد الآن التمور السعودية التي وُصفت بأنها علاج لجميع الأمراض من قبل مولانا طارق جميل، الداعية الأكثر شعبية في باكستان والحليف القوي لخان". كما لفت إلى موقف رئيس الوزراء الهندي الذي تشبث بحقيقة تأييد القوميين الهندوس لقوة العلاج السحرية لبول البقر، الأيورفيدا، وهو نظام طبي متجذر في التاريخ الهندي.

وفي إيران اضطر خامنئي، بعد أن قلل من أهمية الفايروس داعيا إلى قراءة "الدعاء السابع في الصحيفة السجادية"، للاعتراف بالخطر وبضرورة إغلاق الأضرحة. وبنفس الطريقة المتمسكة بالطرح الديني جادل بعض المراقبين الإسرائيليين بأن وباء كورونا يمكن أن يقوض السلطة الحاخامية على نطاق لم تشهده منذ "المحرقة" عندما تخلت أعداد كبيرة من الإسرائيليين عن التعصب الديني بعدما تم إثبات أن النصيحة الحاخامية للبقاء في أوروبا مدمرة.

في المقابل، اتخذت العديد من البلدان العربية ومنها تونس إجراءات مشددة بإغلاقها المساجد وإلغاء صلاة الجماعة وذلك في استجابة لتقارير الهيئات العلمية والإطارات الصحية.

ويرى أصحاب الطرح العلمي الذي تتبناه بعض الحكومات عكس ما يعتقد به المناهضون للعولمة والحضارات أن فايروس كورونا عالمي ودولي، وأن العلم وحده هو القادر في نهاية المطاف على السيطرة على الوباء وإيقافه.

وتوجد مقاربة أخرى توفيقية تبدو أكثر انسجاما مع ما تتطلبه المرحلة وتؤمن بأن دور علماء الدين والأطباء في زمن الوباء دور تكاملي. ويتشبث أصحاب هذا التصور بأنه يمكن للأطباء وعلماء الدين لعب دور مشترك في التوعية بأساسيات الصحة العامة، والنظافة الشخصية، والممارسات الاجتماعية الآمنة كل من منظوره، كما يمكن أن يلعبوا دورا مهما كذلك ببث الطمأنينة والتشجيع على الالتزام بنصائح الأطباء ووضع ثقتهم في الله.

ولتأكيد هذا التصور الأخير، بدت الكثير من المجتمعات التي تعد الأكثر التصاقا بالعلم في حالة تديّن قصوى إثر تفشي الوباء رغم التزامها بكل نصائح الخبراء والهيئات العلمية والمؤسسات الصحية. وفي الولايات المتحدة، بات غالبية الأميركيين يصلون بصفة يومية بمختلف دياناتهم، المسلمون والمسيحيون واليهود في صورة لا تنفي في المقابل، عدم ثقتهم بالعلم.

واعترف جيمس ديو جونيور، رئيس المدرسة اللاهوتية المعمدانية في نيو أورليانز الأميركية، بما أسماه بنظرية "الحرب" التي تشوب علاقة الإيمان بالعلم، لكنه قدم وجهة نظر بديلة تصور الدين والعلم بأنهما "شركاء الحوار". وقال ديو، الذي يكتب بشكل مكثف عن اللاهوت والفلسفة "نحتاج إلى رحمة الله أكثر من أي وقت مضى. كما أننا بحاجة أيضًا إلى مجتمعنا الطبي للقيام بأفضل عمل ممكن في الوقت الحالي".

هذه الرؤية، ترجمها الكثير رجال الدين، لكن تبقى الصورة الأكثر لفتا للانتباه، ما قاله البابا فرنسيس في كلمة ألقاها في 8 مارس الماضي "غريبة بعض الشيء هذه الصلاة... اليوم والبابا محبوس في المكتبة... لكنني أراكم وقريب منكم"، كلمة كانت موجهة بالفيديو عبر الإنترنت من داخل الفاتيكان، بدلا من إلقائها عبر النافذة المُطلة على ساحة القديس بطرس، لمنع احتشاد الآلاف من الناس، وسط انتشار فايروس كورونا المستجد في إيطاليا.

هل نجحت سياسة قمع الوباء أم أن الآتي أسوأ؟

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

لسبب أو آخر يتم التحفظ على نسب الوفاة حسب الفئة العمرية، نحن نعرف عدد الإصابات بالفايروس في كل بلد وعدد الذين توفوا منهم حتى الآن، ولكن لم تصدر حتى هذه اللحظة إحصاءات تشير إلى عدد الإصابات بين الفئات العمرية المختلفة.

قد يبدو للوهلة الأولى أن نشر هذه الأرقام لا يفيد في شيء، رغم ذلك فإن حجبها مثير للقلق.

ليست هذه الإحصائيات هي الوحيدة التي حجبت حتى الآن، فنحن لم نجد أيضا أرقاما تبين على سبيل المثال، توزيع الإصابات والوفيات حسب الوضع الاجتماعي.

أرقام مثل هذه ستقدم العون في اتخاذ قرارات مصيرية، لوقف انتشار أوسع للفايروس.

نحن نعلم أن ليس كل من يصاب بالفايروس سيموت نتيجة لذلك، حتى الآن هناك شبه إجماع على أن النسبة تتراوح بين 1 و2 في المئة.

أفضل دراسة نشرت وعرضت لكل السيناريوهات المتوقعة صدرت عن إمبريال كولدج، في لندن، حيث قام فريق العمل بتغذية برنامج بحثي لقياس مدى انتشار الأوبئة بنسب الإصابات بفايروس كورونا، وأجرى محاكاة لتوقع النتائج الناجمة لو اتبعت ثلاثة سيناريوهات مختلفة؛ الأول ترك الفايروس يأخذ دورته، والثاني "تقليل الخسائر"، والثالث "القمع".

في السيناريو الأول، يجري التعامل مع الفايروس باعتباره أنفلونزا عادية، تستمر خلالها الحياة اليومية بصورة طبيعية، ويترك الفايروس يأخذ دورته الكاملة؛ في هذا السيناريو سيصل عدد الموتى إلى 90 مليونا. مع افتراض أن الحكومات ستطبق سيناريو "تقليل الخسائر"؛ وهذا يتضمن عزل كل المصابين بأعراض كورونا وعزل عائلاتهم، وكل من يتخطى 70 عاما يتجنب أي اختلاط مع الآخرين. هذا السيناريو سيؤدي إلى وفاة 45 مليونا.

أما وفقا لسيناريو "القمع"، الذي اتبعته الصين، وتضمن عزل المرضى وعزل عائلاتهم، وشمل منع الاختلاط بين السكان، ومنع كل التجمعات، وإغلاق معظم أماكن العمل، فإن انتشار الوباء سيصل في هذه الحالة إلى الذروة خلال 3 أسابيع من الآن (16 مارس يوم نشر الدراسة) بعد ذلك يبدأ هذا العدد في التراجع، وسيختفي كابوس أعداد المتوفين الذي شاهدناه في السيناريوهين الأول والثاني.

ولكن هناك معضلة؛ لو خففت استراتيجية "قمع" الفايروس قبل الوصول إلى لقاح فعال يكفي كل السكان، سيعود الفايروس بقوة ليقتل الملايين خلال أشهر قليلة.

العالم الآن يترقب بقلق كبير؛ ماذا سيحدث في الصين؟ هل نجحت سياسة القمع، أم أن الأسوأ قادم؟

يبدو أن موجة ثانية من كورونا بدأت تتشكل في الصين، حيث أعلنت وزارة الصحة، الأربعاء، أنها سجلت 62 إصابة إضافية خلال الساعات الـ24 الماضية. ويأتي ذلك بعد أن رفعت السلطات الصينية قيود الحجر الصحي المفروضة على سكان مدينة ووهان، بؤرة تفشي الفايروس، وعادت الحياة إلى المدينة، بعد إغلاق لقرابة 3 أشهر، مع إعادة فتح مطارها وتسيير بعض قطاراتها وطرقاتها السريعة.

هذا الارتفاع الملحوظ لا يشكل انتكاسة لجهود الصين في احتواء تفشي الفايروس فقط، بل هو انتكاسة لجهود العالم، الذي كان يأمل عن طريق تطبيق قرارات صارمة وقف الوباء.

ورغم أن خبراء في مجال الصحة قد حذروا الصين من موجة ثانية للفايروس، إلا أن السلطات قلّلت من هذه التحذيرات وأكدت نجاحها في مجابهة الوباء.

في حال حدث الأسوأ، وثبت أن الصين عرضة لموجة ثانية، تماما مثلما تنبأ التقرير الصادر عن إمبريال كولدج، ما الذي يمكن فعله، خاصة وأن كل الأخبار الواردة عن الوصول إلى علاج أو لقاح، تتحدث عن الحاجة إلى فترة من 12 إلى 18 شهرا لاستخدامه على مستوى العالم؟

أي من السيناريوهات الثلاثة، التي عرضتها إمبريال كولدج، يجب اتباعه في التعامل مع الأزمة الحالية؟ هل نتعامل مع الفايروس باعتباره أنفلونزا عادية، وتستمر الحياة اليومية بطريقة طبيعية، وتخسر البشرية 90 مليونا من السكان؟

هل تنصح الحكومات بتطبيق سيناريو "تقليل الخسائر"، وهذا سيؤدي إلى وفاة 45 مليونا، وخسائر اقتصادية تدخل دول العالم في أزمة ستحتاج إلى سنين طويلة لتتعافى منها؟

ما فائدة السيناريو الثالث، استخدام "القمع" على الطريقة الصينية، إن ثبتت صحة الدراسات، وشهدت الصين موجة ثانية من انتشار الفايروس؟

ما هو الصواب وما هو الخطأ من بين هذه الخيارات الثلاثة، خاصة على الصعيد الأخلاقي؟ ما الذي يمكن أن يتوقعه الأفراد من المجتمع؟

وما الذي يمكن للمجتمع أن يتوقعه منهم؟

يعتقد حاكم ولاية تكساس الأميركية أن هؤلاء الذين تزيد أعمارهم على 70 عاما، "لا يجب عليهم التضحية بالبلاد"، بإغلاق الأنشطة الاقتصادية، ولكن يجب عليهم أن يكونوا على استعداد للتضحية بأنفسهم.

حاكم تكساس ليس الوحيد في قناعته هذه، هناك كثير ممن عبروا بشكل موارب عن هذا الرأي وطالبوا بعودة الحياة إلى طبيعتها حفاظا على الاقتصاد.

الحل بالنسبة لهم هو "مناعة القطيع" وهي استراتيجية طرحتها بريطانيا في بداية مارس للتعامل مع الأزمة. ويرى أصحاب النظرية أن نسمح للفايروس بالانتشار تدريجيا ليصيب نسبة كبيرة من السكان، وبعد أن يتعافى معظمهم سيكونون مناعة ضده، وعندما يتكون لدى عدد كبير من السكان مناعة، تقل فرص انتشار الفايروس وينحسر تدريجيا وتنتهي الأزمة.

الفكرة، التي تبدوا الآن جذابة بالنسبة للبعض، تعرضت بسببها الحكومة البريطانية لانتقادات لاذعة من داخل وخارج المملكة المتحدة؛ منها خطاب وقع عليه أكثر من 500 عالم بريطاني قالوا فيه نصا "إن 'مناعة القطيع' في هذه المرحلة ليست خيارا قابلا للتطبيق".

نلاحظ هنا أن العلماء البريطانيين قالوا إن "مناعة القطيع" في هذه المرحلة ليست خيارا؛ هل هذا يعني أن تطبيقها في مرحلة أخرى سيصبح خيارا مقبولا؟

العالم أمام معضلة أخرى، في حال تخفيف «قمع» الفايروس قبل الوصول إلى لقاح، سيعود الوباء بقوة ليقتل الملايين خلال أشهر قليلة

هل يعود العلماء ومن خلفهم الحكومات إلى الاقتداء بالفيلسوف البريطاني جون ستيوارت ميل، ونظريته عن "النفعية"، حيث من الضروري أن يجتهد الحكام لتحقيق السعادة الكاملة للناس جميعا، وأن يستهدفوا أكبر الخير لأكبر عدد من الناس؟ أم يسيروا خلف الرئيس الأميركي دونالد ترامب، الذي قال "ليس من الممكن أن يكون العلاج أسوأ من المشكلة"، وأن يستعد الضعفاء للتضحية بأنفسهم لإنقاذ اقتصاد البلاد مثلما دعاهم حاكم ولاية تكساس؟

لا أعلم ما هي مشاعر رئيس الوزراء البريطاني، الذي نأمل له شفاء عاجلا، وهو طريح في المستشفى يعالج من الإصابة بفايروس كورونا؟

آمل أن يجنح لتبني دعوة بابا الفاتيكان، عندما قاد من ساحة القديس بطرس، وهي خاوية، قداسا خاصا للصلاة من أجل انتهاء الأزمة، قال فيها "أدركنا أننا كلنا في نفس القارب، كلنا ضعفاء وتتملكنا الحيرة، ولكننا في نفس الوقت نتسم بالأهمية، وهناك حاجة إلينا، الكل مدعو إلى التجديف معا، ويحتاج كل منا إلى طمأنة الآخر".